شوبنهاور والنقد الأدبى

شوبنهاور من الفلاسفة القلائل الذين شغفوا بالكتابة عن الفن وعنوا بالأدب ولعل سبب ذلك أنه لم يكن فيلسوفاً ممتازاً فحسب بل كان كذلك كاتباً كبيراً ، وهو يعد فى طليعة من نهضوا بالنثر الألمانى وطوعوا اللغة الألمانية . وآراؤه عن التأليف والأساليب وصور الأدب والنقد والعبقرية لها قيمتها ؛ ومعظمها مستمد من تفكيره الخاص وتجاربه الشخصية ، وهو يكاد ينكر وجود الملكة الناقدة فى الإنسان لندرتها وقلة شيوعها ، وهو يشبهها بطائر العنقاء الخرافى الذى يقال إنه يظهر مرة واحدة كل خمسمائة سنة .

والنقد عنده لا يرجع إلى قاعدة ولا يعتمد على أصل من الأصول ، وإنما مداره على الذوق المهذب المصقول الذى يهتدى إلى كشف الجمال ويوفق فى إصابة الهدف ، والذوق الناقد يعجز عن خلق الآيات الفنية ؛ وإنما شأنه التلقى والاستيعاب والتفريق بين الحسن وما ليس بالحسن والجيد والردىء .

وحينما يحاول النقد أن يزن العبقرية ويقدرها لا يجمل به أن يقتصر على تعديد الأخطاء وإحصاء العيوب ، ويكتفى بالإشارة إلى نواحى الضعف والتهافت ، وإنما يجب أن يتجه أول ما يتجه إلى ذكر الصفات التى يتفوق فيها العبقرى ويمتاز بها ، وذلك لأنه فى عالم الفكر – كما فى سائر العوالم – يأبى الضعف والالتواء إلا التعلق بالطبيعة الإنسانية والتشبث بأهدافها ، وأقوى العقول البشرية وأسماها ليس سالماً من الضعف ولا بريئاً من أسباب النقص والعجز . ومن ثم الأخطاء الجسيمة التى تدب إلى أكثر أعمال العبقريين وتشوب

براعاتهم وتشوه محاسنهم .

والذى يميز أعمال العبقريين ويجب أن يكون معياراً للحكم عليهم هو مدى السمو الذى يرتفعون إليه حينما تواتيهم الإجادة ويسعفهم الإلهام ، وهو ارتفاع قلّ أن يبلغ ذروته ذوو المواهب العادية والقدرات المحدودة .

ومن الخطر كذلك الموازنة بين رجلين عبقريين من طبقة واحدة كشاعرين عظيمين أو موسيقارين كبيرين أو فيلسوفين ممتازين ، وذلك لأن فى هذه الموازنة ظلماً لأحدهما لا معدى عنه . لأننا فى عقد الموازنة ننظر إلى ميزة خاصة فى أحدهما ونرى فى الوقت نفسه أن هذه الميزة غير موجودة فى الآخر ، ولذا ننتقص قيمته ونرخص قدره ، وإذا عكس الأمر وبدئ بالثانى وكشفت ميزته الخاصة التى تختلف فى نوعها عن ميزة الأول فإن نتيجة ذلك هى انتقاص قيمتى الاثنين بدون مسوغ ، على أن الموازنة تصلح فى إظهار أنماط التفكير وألوان الإحساسات إذا استعملت فى حذر واحتياط مع تحرى الإنصاف وعدم الميل مع الهوى .

ويرى شوبنهاور أن القسوة فى النقد لا تفيد إذا تجاوزت الحدود ، كجرعة الدواء لا تحدث التأثير المطلوب إذا كانت أكبر من المقدار المناسب ، وأشد ما يبتلى به ذوو المواهب الحقة أن أعمالهم تظل فى انتظار التقدير الذى يسخو به الذين لم يخرجوا للناس سوى مسفسف الكتب وهزيل البحوث ، وأكثر الناس لا يفرقون بين الزائف والصادق ولا يعرفون الحنطة من الزوان ولا النحاس من الذهب .

وأصعب عقبة تعترض سبيل المؤلف القيم حين ظهوره هى كثرة المؤلفات السخيفة التافهة التى تزحم الميدان ، وإذا استطاع الكاتب الصادق أن يشق طريقة ويفرض نفسه فسرعان ما تقوم فى سبيله عقبة أخرى ، هذه العقبة

الجديدة هى ظهور المقلدين الذى يجرون فى غباره ويحتذون مثاله ، ويلتبس الأمر على الناس فلا يعرفون الأصيل من المقلد ، وقد يضعون المقلد البارع فى مكانة أسمى من المبتكر الخالق . ويجد شوبنهاور فى ذلك منفذاً للنيل من أضرابه فى الفلسفة الألمانية ، وهم الثالوث المكون من هجل وشلنج وفخت ، فيقول إن فلسفة «كانت» الجدية الصادقة طاولتها فلسفات هؤلاء الثلاثة وجاذبتها مكانتها ، كما طاولت الأرض السماء سفاهة وكما فاخرت الشهب الحصى والجنادل ، ويشير كذلك إلى الذين اقتفوا أثر ولترسكوت وضربوا على قالبه فى مزج التاريخ بالقصص ، والجمهور لا يدرك وجوه التفوق والامتياز ، ولذا لا يعرف ندرة الإجادة فى الشعر والفلسفة والفن ، ولا أن هذه الأعمال الممتازة وحدها هى الخليقة بالإعجاب والتقدير ، وتقدير أعمال العبقريين يأتى فى أغلب الأوقات متأخراً .

ويسترعى شوبنهاور نظرنا إلى مسألة هامة جديرة بالتأمل فى تاريخ الأدب والنقد ، وهى أن بدائع الماضى وروائعه تظفر فى كل حين بالإعجاب والإجلال ، فى حين أن الروائع المعاصرة لا تقدر ولا يعترف بقيمتها ، ويوجه ما هى جديرة به من الإلتفات والرعاية إلى أشياء لا تدانيها فى المكانة . وعجز الناس عن إدراك البراعات المعاصرة يدل دلالة واضحة على أنهم لا يحسنون تقدير البدائع التى طال عليها الزمان ، وهم يظهرون الإعجاب بها نزولاً على التقاليد واتباعاً لآراء العارفين .

والواقع أن من أخطر العيوب التى امتلأ بها تاريخ النقد عجز النقاد عن تقدير المبتكرات الفنية والأدبية المعاصرة لهم وكثيراً ما تعثر النقد فى هذا التقدير وضل وغوى ، ولم تسلم صحائف كبار النقاد المعروفين من هذا النقص ، فجونسون مثلاً يقول عن منظومة ملتن العظيمة المعروفة «بالفردوس المفقود» :

«إن قراءتها واجب وليست متعة» وقد قوبلت أشعار كيتس وشلى مقابلة سيئة من نقاد عصرهما وكتاب كارلايل العظيم عن الثورة الفرنسية واجه عاصفة من النقد الحانق حين ظهوره ، كذلك ثكرى وجين أوستن لم يرحب بهما فى بادئ الأمر ، وقد ثنى النقد عزيمة بعض كبار الشعراء والكتاب فلزموا الصمت حيناً من الزمن مثلما حدث لوردز ورث فى بعض مراحل حياته الأدبية ولتوماس هاردى فى عقب ظهور رواية جود الغامض . والناقد الذى يسىء فهم ذوى المواهب ويؤلم نفوسهم بتحامله ولجاجته يحول بين الجمهور وبين الاستفادة من أصحاب القرائح ، وفى بعض الأحيان يغمر الشعراء والكتاب بالمدح السطحى المبالغ فيه فيضللهم ويفتنهم عن أنفسهم .

وقد كان جيتى شاعراً ناقداً ، ومع ذلك فإن أحكامه على شعراء الإنجليز والفرنسيين المعاصرين له تحير الفكر وتربكه ، فقد رفض أن يقدر شيلى ، وفى سنة ١٨٢٤ تكلم عنه مع صاحبه المستشار ميللر باستخفاف وكان قد مضى على وفاة شلى عامان ، وكذلك لم يعجب بكولردج ، وكان يغالى بقيمة بيرون وصرح بأنه الشاعر الوحيد الذى يعده نظيراً له ، والناقد الكبير سنت بيف على فضله وسعة ذرعه لم يقدر ستند هال وتنكر لبودلير ومربيه ، وكثيراً ما كان للتحيز السياسى أو الدينى أثر فى إفساد أحكام النقاد .

ويرى شوبنهاور أنه كما أن الشمس لا ترسل ضوءها إلا للعين التى تبصرها وكما أن الموسيقى لا تطلق أنغامها إلا للآذان التى تسمعها ، فكذلك الكتب القيمة والطرف المتازة فى الأدب والعلم لا يعرف فضلها ويزن قيمتها إلا من كان راجح العقل نافذ النظر ، وذو البصيرة يملك كلمة السر التى تحرك الأرواح المختبئة فى العمل الفنى العظيم ، والطرف الأدبية عند ذوى الأذهان العادية صناديق مقفلة وأشياء ملففة وآلات موسيقية لا يستخرج منها من يجهل طرائق

استعمالها سوى نغمات مختلطة ، وتأثير الطرف الفنية يتفاوت بتفاوت العقول التى تجهد فى تفهمها واستيضاح معناها ، والأمر كما قال المتنبى :

ولكن تأخذ الآذان منه على قدر القرائح والعلوم

والعمل الجليل الممتاز يحتاج إلى عقل يدرك جماله ونفس تعى روعته ، ومما يثير الأسف أنه كثيراً ما يحدث أن يكون الذى يقدم الأثر الفنى الرائع الجميل مثل صانع الأسهم النارية الذى تتقد نفسه حماسة وهو يقدم الأعاجيب التى قضى زمناً فى ابتكارها وبذل جهداً فى إعدادها ، ثم يعرف فى نهاية الأمر أن المكان الذى اختاره لعرضها لم يكن به من النظارة سوى فرد واحد ، وأن سائر الأفراد الذين أبصرهم كانوا جماعة من المقيمين فى أحد ملاجئ العميان ! على أن ذلك ربما كان أصلح له ، لأنه لو كان هناك رجال من الذين كانوا ينافسونه فى عمل الأسهم النارية ورأوا أن ما يعرضه باهر ممتاز لكلفه ذلك على الأرجح فقدان رأسه !

ومصدر المتعة والارتياح هو شعور الإنسان بالألفة والتجانس والمقاربة ، وفى مخالطة الناس يميل النظير إلى نظيره ، وشبه الشىء ينجذب إليه ، والسخيف يشعر بمتعة فى مصاحبة عديله فى السخافة وتفاهة التفكير وعامية الذهن ، ولا يطمئن إلى معاشرة ذوى الألباب الراجحة والعقول الكبيرة والآفاق الواسعة . وكل إنسان بطبيعة الحال يروقه عمله ، لأنه مرآة شخصيته وصورة نفسه وصدى تفكيره ، ويتلو ذلك أعمال الذين يشبهونه ، ويشاركونه فى خصائصه ومميزاته ، فالسخيف الذى لا يدرى سوى بضعة ألفاظ وصيغ يرددها بلا فهم ترديد الببغاوات يحب ويؤثر من كان مثله سخيفاً سطحياً ، وهو يسلم بأهمية الكتب القديمة – وإن كان يجهل فيها مواضع الحسن ومواطن القوة – خشية التصريح برأيه ، والاعتراف بالأعمال الممتازة حين صدورها

يحتاج إلى تفوق عظيم وملكات جد ممتازة .

ويرى شوبنهاور أن المجلات الأدبية يجب أن تكون حجازاً يتقى به طغيان الكتب غير النافعة ، ويجب أن تكون أحكامها عادلة غير مغرضة ، وصارمة لا تعرف المجاملة ولا المواربة ، وأن تمزق جلود الكتب التافهة بالسياط فى غير هوادة وبلا رحمة ، وبذلك تؤدى هذه المجلات واجبها وتنهض برسالتها ، وهى أن تضع حداً لخديعة الجمهور وتغفله وإفساد ذوقه ، وهى إذا التزمت الاعتدال والقصد أو السكوت والإغضاء تمكن للمؤلفين السخفاء والناشرين الجهلاء . ولو عرف كل شويعر متشاعر أو فيلسوف زائف أو كاتب كليل الحد ناضب المعين أن كتبه ستستهدف لنقد الحر الصريح لارتعد وأحجم وأراح القراء من هرائه وسخفه ، وفكر فى ارتياد ميدان آخر من ميادين الدجل والخديعة والتزوير ، ومن الخطأ فى عالم الأدب والفكر ملاينة الأغبياء واحتمال من لا عقل لهم ، لأنهم فيه دخلاء وقحون ، وواجبنا نحو المجيدين السباقين يقضى بإبعاد الضعفاء المتخلفين ، والمجاملة فى النقد ضارة لأنها تستلزم أن نسمى العمل الردىء حسناً ، وهذا يبطل الغرض الذى ينشده العلم والفن ، والمجلة المثالية هى المجلة التى يكتبها قوم لا يسمو إلى أمانتهم وإخلاصهم الشك ، ويضاف إلى ذلك صدق الحكم وثقوب الفكر .

ويحمل شوبنهاور حملة شديدة على النقد المقنع ، وهو يرى أن هذا الأسلوب فى النقد كان سببه تجنيب الناقد غضب الجمهور أو سخط المؤلف وشيعته وأنصاره ، ولكن كثيراً ما يتخذه النقاد الأدعياء الذين لا يرغبون فى احتمال تبعة آرائهم والوقوف إلى جانب ما يقولون . وهو يشبه لناقد المقنع الذى يهاجم المؤلفين بالرجل الذى يرخى قبعته على وجهه ثم يهاجم المارة غير المتنكرين ، وهو عمل لا يرتضيه الرجل المهذب ، ولا يقوم به إلا كل وغد زنيم

أو جبان حقود ، وكل رجل أمين يحترم نفسه ورأيه يجب أن يمهر مقالاته بإمضائه . ومن خالف ذلك فإن أمانته - فى رأى شوبنهاور - موضع الشك . ويقول ريمر فى ذكرياته عن جيتى « العدو الصريح الذى يلقاك وجهاً لوجه رَجُلٌ أمين يحسن معاملتك ، وتستطيع أن تعقد معه اتفاقاً وتزيل الخصومة ، ولكن العدو الذى يستتر ويتقنع عدو سافل جبان ليس عنده من الإقدام ما يكفى لإعلان رأيه ، وهو لا يعنيه رأيه وإنما يهمه سروره الخفى فى صب غضبه ونفث حقده دون أن يلحقه لوم أو يصيبه عقاب » .

هذه خلاصة رأى شوبنهاور فى النقد وهو لم يأت فى النقد بجديد ، والجديد فى النقد من الأشياء النادرة ، ولكنه يعرض الشائع المعروف عرضاً طريفاً قوياً ويشير إلى حقائق تستحق أن يلتفت إليها وينوه بها .